طلعنا عالحريّة

حرية ، كرامة، مواطنة

العدد 106

2022 / 9 / 29

مجلة شهرية سياسية ثقافية اجتماعية

التبشير بدين قديم!

افتتاحية العدد بقلم أسامة نصّار

مع تصاعد وتيرة الاحتجاجات في إيران، بدأ بعض السوريين النظر للإيرانيين بعين غير التي ترى حرساً ثورياً، وميليشيات طائفية شريكة في الإجرام، ولطميات تتمدمد في المنطقة. العين الجديدة ترى بالإيرانيين شعباً مقموعاً يكافح لنيل كرامته، وللانعتاق من سلطة العسكريين والمعمّمين والأبويّين.. هم شعب مظلوم.. مثلنا! عادة لا تحتاج "معركة الحجاب" إلى محفّز بضخامة مظاهرات خلع الحجاب وقصّ الشعر التي تقوم بها الإيرانيات في شوارع المدن الإيرانية. هي جبهة نَشِطَة على الدوام. ومن نافل القول اليوم إن الحجاب (غطاء شعر النساء) في الاحتجاجات الإيرانية يحضر هنا كرمز. رمز لتسلّط الحاكم وفرض رؤية أحادية على الشعب. وأن تمزيقه أو حرقه هو تحطيم للصنم المتمثل فيه، تماماً مثل تمزيق صور خامنئي وأصنامه.

لا يقبل متمسكون بالحجاب هذا التعامل الرمزي معه إلا في السياق المعاكس؛ أقصد السياقَ الذي يُمنع فيه ارتداء غطاء الرأس، كما جاءت تشريعات جديدة في بعض البلاد الأوربية. هنا يصير الحجاب معقلاً للإسلام ينبغي الذود من حوله والعضّ عليه بالنواجذ! ويتذكر السوريون بمرارة حواجز تفتيش ودوريات لقوات (سرايا الدفاع) تخلع الحجاب بالإجبار عن رؤوس بناتهم ونسائهم في شوارع دمشق وحلب وحماة..

ولو تكلمنا عن إعادة تشكيل المفاهيم الدينية بطريقة مختلفة، تتجاوز الطقوس والأشكال والحركات، وتنفذ إلى عمق المقاصد المرجوة من الدين والرسل والرسالات، لتضع الإنسان المكرّم بنفخة من روح الله في مركز هذه المقاصد، ستهطل علينا الاتهامات بالهرطقة وتخريب الدين أو بابتداع دين جديد. لكن، الناظر إلى مسيرة البشر والأقوام على مرّ التاريخ يرى أن الأنبياء والمصلحين جاؤوا ليترك الناس عبادة العباد، ولألاّ يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله. وللمفارقة أيضاً يرى أن "الهرطقة" والردّة عن الدين هي اتهامات لازمت كل الأنبياء والمصلحين، تكيلها لهم الأقوام بغطاء من حراس المعابد وسدنة الأوثان وحاشية الطغاة.. عندما تصير الممارسات (الطقوس أو حتى الشعائر) أدوات تسلّط وبطش ورموزاً للطاعة والخنوع.. علينا أن نتفهم من ينادي بشقّ عصا الطاعة كفعل ثوري نبيل، يستوي فيه نزع الحجاب وحرقه أمام متشددي شرطة الأخلاق في أصفهان وشيراز وتبريز، والإصرار على ارتدائه في دمشق وحلب وحماة أمام المظلّيين والمظلّيات أتباع رفعت أسد، أو في أماكن تمنعه حالياً..

للأسف أننا نجد أصحاب الرؤية الأحادية في كل مكان؛ فبينما تخوض الإيرانيات معركة تحررهن وتحرر بلدهنّ من خلال تمزيق صور المرشد الذي "علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم" تواجه نساء سوريات معارك مشابهة من ظلاميين يظنون أنهم يقفون على الضفة المقابلة للمرشد الأعلى! فيشنّون حرباً شعواء على نساء أردن ممارسة دورهنّ في واقعنا الصعب، ويبدأ كيل التهم لهنّ على أنهنّ مخربات يروجن للفساد ولقائمة من المصطلحات التي يجمعها حاطب ليل، من هنا وهناك، ويضعها في حزمة واحدة ينبغي خنقها: "النسوية، الجندرة، تحرر المرأة، سيداو، نوال السعداوي.." ولا ننسى بقية المحاجّة: "إنا نخاف أن يبدلوا دينكم أو أن يظهروا في الأرض الفساد"!

طلعنا عالحريّة
شهرية ثقافية، اجتماعية، سياسية، تعنى بالشأن السوري

www.freedomraise.net
المقالات المنشورة تعبر عن آراء أصحابها أولاً ولا تعبر بالضرورة عن آراء هيئة التحرير
المجلة غير ملزمة بنشر كل ما يردها من مواد

رئيس التحرير أسامة نصّار
نائب رئيس التحرير ليلى الصفدي

تفاعل معنا عبر صفحاتنا على الإنترنت
facebook.com/rising4freedom
twitter.com/freedomraise
freedomraise@gmail.com

المدير الإداري
معتصم أبو الشامات

الغلاف
سمير خليلي

كاريكاتير
سمير خليلي / هاني عبّاس

أمن رقمي ومحاسبة
وائل موسى

زملاء مختطفون في سوريا
رزان زيتونة - ناظم حمادي

مرّة أخرى ـ في فهم المحنة السوريّة !

مرزوق الحلبي - دالية الكرمل

يتحفّظ زيغموند باومن (عالم اجتماع العولمة من أصل بولونيّ انتقل للعيش خارج بلده) على مصطلح ما بعد الحداثة ويُسمّي زمننا الراهن بـ"الحداثة السائلة" توكيدًا على عمليات الجريان اللانهائيّة في المجتمعات البشريّة. جريان المحسوسات من بضائع وبشر وجريان الرمزيات والتمثيلات من أفكار وقيَم ومعاني ومعايير. وهو جريان يتمّ كنتيجة للجريان في العمليّة الاقتصادية التحتيّة. جريان البضائع وسلع السوق الحرّة، جريان خطوط الإنتاج من بلد لبلد والأيدي العاملة والرأسمال عبر البورصات وجريان المصالح على مساحة الكرة الأرضية. كلّها عمليات تتمّ من خلال تراجع مكانة حدود الدول وسياداتها وأنظمة الحماية الوطنية المتعددة المستويات. يُضاف إلى كلّ هذا ثورة الاتصالات، وما تُتيحه من جريان هائل للصور والتمثيلات والمعايير والأفكار، تضغط الزمن والمسافات وتكاد تُلغيها. هذه النقطة بالذات هي التي تستدعي منّا رؤية أخرى للاجتماع البشريّ المؤسّس على قاعدة الدولة الإقليمية/القومية وحدودها واجتماعها، وهو قاعدة يبدو أنها تقادمت وتقوّضت أمام سيول جارية من كل مكان إلى كل مكان.

على الرغم من استمرار إشغال الدولة القُطرية لدورها كوحدة القياس السياسية السياديّة في العلاقات الدولية فإننا حيال تراجع واضح في مكانتها حدّ تحوّلها إلى مساحة أخرى يكتسحها "الجريان" والسيولة. وهي سيولة -إذا واصلنا التشبيه- تلغي الحدود وتُفرغ الدولة من مضمونها بالكامل حتى في حدود ضيّقة لهذا المعنى. فقد تفرغ الدولة من مواطنيها كما في سوريا وتستمرّ في الوجود على الورق وفي أروقة الأمم المتّحدة. أو أن تعجز الدولة عن تأمين التيار الكهربائي والعلاج الطبّي لمواطنيها فتهجّرهم أو تحمي البنوك التي تصادر أملاكهم وأموالهم كما في لبنان. أو أن تعجز الدولة عن فرض سيادتها على كامل أراضيها.. هنا قائمة الدول طويلة جدًا على مدار الكرة الأرضية بما فيها دول عظمى كروسيا أو قويّة كـ"إسرائيل". يتفاوت مستوى الجريان من موقع لآخر، لكن من الواضح أن النظام الدوليّ المُعوْلم يفرض هذا الجريان على نحو يعزّز من إحكام الأقوياء من اللاعبين على أعناق المستضعفين منهم. وهو نظام ليس في اللغة الأكاديمية أو في مادتي المكتوبة هذه، إنما شبكة كثيفة متقاطعة من القوى والمصالح. فيها لاعبون غير دولانيين كشركات واحتكارات ومنظمات غير حكومية وأخرى سرّية وحكومات ظلال وأخويّات. وفي رأينا المتواضع أن هذا النظام غير معنيّ بعدد الدول، زيادة أو نقصاناً -وقد زاد منذ انتهاء الحرب الباردة بنحو 60 دولة!- لكنه معنيّ بشكل خاص بمفهوم الدولة ومستوى سيادتها. فقد يجد هذا النظام أنه من المفيد أن تنشأ دولة جديدة هنا وأن تنشق دولة عن أخرى هناك. المهم أن تظلّ هذه الدولة طيّعة وقابلة للجريان ضمن النظام إياه أو فاتحة أبوابها كلّها لجريان النظام داخلها على هواه.

يُمكننا فهم محنة سوريا (ولبنان) ضمن هذا الإطار. يُمكننا أن نرى بقاء الطواغيت فيهما جزءًا من قبول "الممانعين" بالجريان إيّاه خاصة الجريان عبر الدولتيْن الإسميتيْن. فما دام نظام المافيا لآل الأسد يُتيح تقسيم سوريا بين احتلالات خمسة وضمان مصالح هذه الاحتلالات في الإقليم فليبقَ. وما دام حزب الله يتعاون مع لاعبين آخرين ويُتيح الجريان نفسه فليبقَ هو كذلك حتى آخر الدهر! هذا يعني أن "نظام" المافيا الأسدي ونظام الملالي في لبنان هما جزء من السيولة ولا يزالان محتفظيْن بقدرتهما على مجاراة قوى الدفع التي تفتح قنوات الجريان وتغيّرها وتتبادلها وتضخ فيها السيول. الخطير في الأمر أن الجريان الحالي في العالم ابتعد كثيراً جدًا عن كوابح وضوابط ما بعد الحرب العالمية الثانية (سلسلة من المعاهدات والمواثيق والقوانين الدولية التي تحدّ من استعمال العنف وانتهاك حقوق الإنسان داخل الدول وبينها) ويتجه بقواه وتقاطعات مصالحه بخطى واسعة إلى حريّة منفلتة كنتيجة لانطلاق "السوق الحرّة" ومفاهيمها ومعاييرها كبنية تحتية للأفكار والأعراف والقيم والمعايير. إننا حيال نظام عالمي تتحوّل فيها الدولة (الممسكون على مفاصلها ومؤسساتها ويحتكرون العنف فيها) إلى عصابة أو مافيا تسمى دولًا. لقد باتت الشركات أقوى ألف مرة من الدول. وهي صاحبة القرار ليس في الدول نفسها بل بينها أيضاً. ولا نُبالغ إذا قُلنا إن الموظفين في تسيير مصالح الشركات من خلال عمل اللوبي في البرلمانات -حيث لا تزال تعمل- أقوى من أعضاء البرلمان أنفسهم. والأخيرون أختام مطاطيّة للأوّلين. أو بكلمات أخرى، البرلمانات تغسل باجتماعاتها ولجانها وقراراتها الغايات السوداء لعمليات الجريان.

في بعض الأحيان تؤدي عملية الجريان وغايات استمرارها إلى إلغاء البرلمانات ومُكتسبات الناس (تونس وروسيا وبورما) أو إلى إلغاء الدولة نفسها كما في العراق وسوريا وليبيا والصومال ولبنان. لكن أبشع ما يُمكن هو أن يتمّ توجيه الجريان والسيولة نحو الشعوب وتهجيرها من مواطنها ومساقط رؤوسها. وإذا لم يُهاجروا أو ينزحوا فلا بأس من أن يموتوا تحت أنقاض بيوتهم التي شادوها بتعب سنين. أفهمتم لماذا يبقى نظام المجازر في دمشق ولبنان؟

عندما هتف محمد: الشعب يريد...

يوسف صادق

عندما هتف محمد: الشعب يريد.. إسقاط النظام، كان أكثر من سوريٍّ.. محمدٌ خرج من صوره وانتماءاته ليعلن أنّه الشعب.. كان فلسطيني الذاكرة والوشم، سوريّ الغربة والانتماء.. حيفا والقدس حكايات لم يعشها، بينما درويش حاضرٌ بتفاصيل كلامه، هو للأزرق.. بينما ينهض من الرمال، هو تفاصيل الوحشة في مخيمات فلسطين واليرموك وجرمانا والحسينية وحجيرة.. بينما تسرقه الهافانا والنوفرة وتأسره في الأضواء والنداءات والروائح البعيدة...

هتف محمد ليجمع الأضداد، والصور الكلاسيكية البائسة، لمجتمع أراده؛ يختصر فيه الإنسان المنّمط بخارطات السياسة والجغرافيا.. هتف ليحيي وحشة المخيمات في خاصرة دمشق منذ عقودٍ والخواء يخنقها، كيفما مالت دمشق ورقص حكّامها..

محمد ابن حجيرة، قدرها ضجيج الأولاد في مهب ريح الشتات، هل استجارت بالسيدة؟ أم أنّ السيدة استجارت بشعبٍ مشتت لتبني على أحلامه أحلامَ مَنْ ماتوا منذ مئات السنين.

بدأ الزحف بسوقٍ كبير، جمع شتات المهجّرين العراقيين، ولم يكن بعد سوقاً لمآرب السياسة، هذا المكان كما غيره في الجغرافيا السورية، زحفت إليه مقامات السياسة واستوطنته.

محمد كما غيره من المهجّرين الفلسطينيين رحّب بمهجّرين من أمثاله، وكلنا غرباء؛ كلّ السوريين غرباء في سوريا. قدرهم مخيمات المدن والنزوح، قدرهم عتمة وضجيج أولاد يملأ الطرقات، قدرهم أعمال دون ونظرةٌ دونيّة، وجنسية مؤقتة، حقوقهم في الدرجة الثانية، أما واجباتهم فتتساوى مع واجبات السوريين المقهورين، قدرهم أن يُتاجر بأحلامهم بمعسكرات الصاعقة، والزّج بهم في مناطق التوتر بلبنان وليبيا، وليس آخرها سوريا، قدرهم كما أراده جبريل وغيره من أمراء الحرب في سوريا والضفة والقطاع أن يكونوا حرساً على ممالك الضياع، وكما تُدار هذه في غزة والضفة، تُدار في الشتات، ويدفع أبناؤها أثمان أحلامهم بالعودة إلى القدس.

محمد كما غيره رفض غرباته، رفض أضداده، رفض صوره المشوّهة، رفض عين البندقية، حينما ينظر منها ملكٌ أو مُستبدٌ أو مُتديّن.

الشعب يعني إرادة الجماهير المهمّشة في الحواري المُساقة في قطعان الأحزاب والزعامات، الشعب يعني لمحمد عودة القانون والسياسة للمجتمع، عبر نهضة ثقافية لا تحدّها الجغرافيا السياسية. كان يتابع الجابري في أبحاثه بالتراث العربي، ويقول: "يلزمنا الحفر عميقاً".. كان يتابع البرقاوي والعظم ويقول: "يلزمنا مشروعاً نهضوياً شاملاً".

هذا الدرويش عرف أنّ الغربة تساوي تسميات الدول العربية تحت أحكام السلاطين والزعماء، عرف أنّ القواسم المشتركة بينهم واحدةٌ، ولا فرق إلّا بأسماء الطغاة.

محمدٌ كان سوريًا فلسطينيًا عربيًا إنساناً.. هتف ضد طاغيةٍ يقتسم إحدى جهات الجغرافيا، كما اقتسمت الشعوب جهات الشتات والغربة. كان حلمه في أيام الجامعة هو العودة للقدس، وبعد الثورة السورية صار مثل أيّ شاب يحنّ لغربةٍ أخرى.

محمدٌ وصل للقارة العجوز ليكمل غربته هناك، اتصل بي يوماً ليقول إنّه يودّ مشاركة أحد جمالَ منظرٍ رآه.. ولم يستطع الاستمتاع به. هو هنا معنا مع أهله، مع قلقه مع غربتنا، هو هناك صدىً لم تتعرّف الشوارع والأضواء عليه.. لم تستمع لنداءات الروح، وعذابات المدن التي يحملها تحت نظارته البنيّة، نظارته هناك وعيونه لم تغادر دمشق ومخيّماتها، يرى في عتمتها آلاف الحكايا، مسافة بلا هدف، زمنٌ يغالب انكسار المرايا، معنىً يغالب الكلمات ليحيا في كلام رتيب.. هنا الوجود مقذوف في همجية الصوت، وفضّيحة الضوء حينما يغادر دمشق.

أيهما فضيحة الآخر؟ أضواء تزيّن الصمت في الشوارع، أم أضواء بثياب رثّة منذورة لشموس لا تتسع لها الطرقات، ولا جوارب الأحزاب، ولا الكلام المُستهلك في المدائح والمراثي!..

ترك محمدٌ لي كتبه التي يحبّ، هي ما استطاع إنقاذه من مخيمات الشتات، ترك لي حوارات الشموع، وضجيج الأولاد في الحارات، ورحل إلى بلاد الصقيع. ترك لي درويشاً ليؤنسني، ليذكّرني أنّه حيث نجد المعنى يكون الوطن.. وحيث تحتفظ الظلال بدفء مَن غادروا تكون الذاكرة.

محمد تجاوز صدى الأمكنة، تجاوز تقاليد المقهورين، محمدٌ الإنسان أحبّ نظيره في المياه الجارية.. فحاربته القبائل مرّات، وسلّطت سكاكينها على وشمه وقلبه.

أحبَّ كفلسطيني ثائر، بعطاء الخليل وكروم يافا، العشق روح الانتماء والأرض وقدر السحاب أن يهاجر.. محمد حياته اختياره وتحقيق المعنى عنوانها وظلاله الدائمة الوارفة حيث خطا..

كما غيره من الفلسطينيين ممّن بحثوا عن انتماء عربي، فلم يجدوه في لبنان أو سوريا أو ليبيا أو تونس أو الأردن... رفض الولاءات كما غيره لأجل تأشيرة عبور، رفض أن يحمل فلسطين إلى قصور المؤتمرات والمزايدات. ذاك الدرويش ابن تناقضاته، بل أكبر منها.. هو الغريب والمنتمي للشتات والمخيمات، هو الابن والعاقّ للفقر والبؤس في بيوت الصفيح، هو المتمرّد على عادات القبيلة، وهو الصوفيّ في حروب الأفكار ومعارك الكلام المدرّع بالحديد، هو ابن ماضٍ لم يعشه سوى وشماً، وابن حاضر لم يعشه سوى رغبةً، محمد ابن مستقبلٍ وعد به الجليل وبيارات أم سعد وزيتون القدس، وكلّ إرادة ما تزال تحمل المفتاح لبيت تذكره يدان متعبتان.

محمدٌ رفض المظلومية وفضّل صخب الأولاد في حجيرة على صخب الكاميرات والأخبار العاجلة، حسبه كما درويش يرى ما يريد، حسبه الريح بيده حنونة في المخيّمات، مجنونةٌ في شوارع الأضواء الباردة.. حسبه وقدره أنّه إنسان انتمى إلى فكرةٍ في الشتات.

خيار الفلسطيني حجرٌ أو قصيدة في المنفى.. خياره خارج خارطات أوسلو وخارج عقود الاستثمار مذ خرج أول فلسطيني من أرضه..

طوبى لمَن حمل فكرة المعنى أينما انوجد، طوبى لمَن انتمى للريح والشمس، طوبى لمَن جعل الذاكرة حياة يدحرجها أمامه، وصخباً يملأ الطفولة، طوبى لك.. محمد!

نحن والزمن في حضرة "جميس ويب"

جمال الشوفي

في القرن السابع عشر، اتهمت محكمة التفتيش التابعة للكنيسة الكاثوليكية غاليليو بالهرطقة،وتهمته كانت أنه نفى فكرة مركزية الأرض المقدسة لاهوتيًا ودوران الشمس وباقي النجوم حولها، مثبتاً فكرته بمركزية الشمس ودوران الأرض حولها. قضى غاليليو في السجن حتى موته، وفي رواية أخرى أمرت المحكمة بإعدامه، ويوم إعدامه ركل الأرض بقدمه وقال: تدورين رغم إعدامي!

اليوم وبعد قرون من حادثة غاليليو، يأتي تليسكوب "جيمس ويب" ليطرح قضية الكون؛ أصله، زمنه، امتداداته، البحث عن أكوان أخرى.. بل ثمة سؤال يطرح نفسه: كيف يمكن للدول أن ترصد مليارات الدولارات للبحث في عمل علمي افتراضي، لا يقدم للناس الخبز والمعاش اليومي بشكل مباشر؟ أهو الترف العلمي؟

سؤال محير، وتبدو إجابته ذات فرضيات عدة. لكن، وبعيدًا عن الخوض الجدلي في العلوم ومناهجها وجدالها العقيم مع الأديان ومقدساتها، ثمة إجابة يمكن فرد الحوار حولها متسعًا ومفاده: سؤال الاستقرار السياسي والاقتصادي المعزز بالبراهين العلمية والحياتية الذي أتاحته الحضارة العصرية، والثقة بالبحث العلمي واستقلالية نشاطه وأبحاثه، التي تنتج على مستوى الاقتصاد والزراعة والصناعة والتقنية بأحدث طرقها المبتكرة التي تعيشها البشرية اليوم. كما قدرته على سبر أغوار الكون واكتشاف مجاهيله. فاكتشاف النار غير مجرى حياة البشرية البدائية، وقد يؤدى اكتشاف الأشعة الكونية عبر مرايا "جيمس ويب" العملاقة في تغير مسار الكون والحياة أيضًا، وربما فكرتنا وأفكارنا عنه/ها.

الحضارة التي طالما تحدثنا عنها فكريًا، طالما حلمنا بتحقق أسسها في ديارنا، في معاشنا وحياتنا، هي تلك الحضارة العصرية ذات الجذر الأوروبي والامتداد الأمريكي المعاصر. وسواء اتفقنا، نحن القابعين في عوالم الشرق الكئيب والأسير، مع سياساتها وطرق إدارتها بالتعامل مع قضايانا ومصائرنا أو لا؛ لكن هذه الحضارة هي حضارة الدولة الحديثة التي تتمثل فيها أركان الحكم والعدل المبني على الحرية وحق الاجتهاد والتفكير والإبداع، فصل العلم والعلوم والسياسة عن الأديان وليس إنكارها؛ فمن يؤمن بأي دين فهو حر، ومن يؤمن بالعلم وطرق إثباته حر أيضاً، وكلٌ في فلك الأرض والبنيان الاجتماعي والاقتصادي يدورون، وذلك ترجمة لتعبير "تشارلز تايلور" في "العصر العلماني": "لا نزاع حول الدين، بل ذهاب في تجاه البناء المجتمعي".

هذه الحضارة تتسم بالانفتاح على الجديد والتجدد، بالتشجيع على البحث العلمي والمعرفي بآن، بالثقة بالعلم والتجربة وليس فقط، بل بالمعرفة العلمية المعللة بثلاثية: التجربة والنتيجة والنظرية أو الطريقة معًا. وعدم الاكتفاء بإحداها والدخول في الجدل العقيم الذي نعيشه في حوارات الشرق المريرة: نظريتي لا نظريتك، تجربتي أقوى وأثمن من تجربتك.. دون الأخذ بسحر المركب الثلاثي: الإنجاز والازدهار والتقدم، ما يُظهر هذا الاختلاف والتفاوت البيّن بين حضارتين.

مرآة "ويب" العملاقة، تليسكوب وكالة ناسا، شاغل الدنيا اليوم بقصة الزمن والرجوع به مليارات السنين لاكتشاف أصل الكون. إنها بالمبدأ موضوعة الزمن، الفكرة الثورية الخلاقة في تاريخ البشر، الفكرة الطفرة التي غيرت مجرى العصر: الزمن بعدًا رابعًا مستقلاً عن المكان، قابلاً للتحرك بمعزل عن حركة المكان وأبعاده الثلاثة! فكم يتكرر علينا ذات المكان رغم دوران الزمن ونحن قابعون في أسفل درجات البدائية، لا بل نتراجع تسلطًا واستبداداً وسحقًا تاريخيًا للعصور الحجرية، بحكم ثبات الزمن هذا. وكم يمضي الزمان بنا بصفرية لحظته حين نفتح وسائل التواصل ونجتاز كل أبعاد المكان اللانهائية، ونجري اتصالاً مع أخر نقطة في الأرض.

لا أعجوبة بهذا، بل حقيقة ماثلة نعايشها لحظيًا، علّنا نتفكر. بل علنا نتذكر ماذا فعلنا بعلمائنا ومفكرينا وأصحاب الإبداع منّا، كيف وأدنا حرية الفكر والقول والرأي، كيف استأثرت سلطاتنا السياسية والدينية بالحقائق المطلقة، وأقامت كل طرق الانغلاق والتراجع والتدحرج للخلف لدرجة السقوط الحر في بحر الظلمات والموت والكوارث التي نعيش؟ فالانغلاق خلاف الانفتاح، وهذا السقوط والتراجع خلاف الازدهار، وهذا الموت الذي نعيش خلاف الحياة وشغفها، فالغربُ ليس أفضل منا، إنهم فقط يدعمون الفاشل لينجح، بينما نحن نحارب الناجح، لدرجة القتل العمد، ليفشل، حسب تعبير أستاذنا وعالمنا المرحوم "أحمد زويل".

الزمن كبعد مستقلّ عن المكان، وبعيدًا عن الغوص في مقتضاه العلمي قضية شائكة ومذهلة علميًا. فهو لم يتضح بعد بشكل دقيق لمعظم هواة العلم والعلوم، ولنقل بشكل ملموس، وذلك كون البشر لا تقتنع إلا بالملموس والمباشر، فكيف هو للبشر العاديين! إذ تبدو استقلاليته محط تشكيك كما كروية الأرض! فالبشر تعيش الحاضر وتتغنى بالماضي وترقب المستقبل بشيء من الريبة، وبعضها باليقين المطلق بنهاية حتمية ما، وتلك كانت فكر مركزية الأرض المقدسة التي تحررت منها الحضارة الأوروبية بعد طول صراع. لكن ماذا لو عدنا قليلًا لبعض من نور حضارتنا التي نصرّ على طمسّها؟

لنغني بعيدًا عن العلم، دعنا نرقص رقصة الحلاج أو زوربا في حضرة جلال الكون والكلمة والحكمة، فـ"الزمان مكان سائل، والمكان زمان متجمد"، جملة تتباين فيها حدود المعنى رغم اشتراك الكلمات والجذر اللغوي، لكن لقول محي الدين بن عربي هذا معنىً سابق لعصره. فالسيل مرونة وحركة، تقدم ومجرى، انكسارات وامتلاءات، وقد ينبعث انفجارًا في جدول أو نبع. الزمان قابل للتغير والتبدل، للتحرك، حينها يتحرك المكان والوطن، يتقدم، يزدهر، ينبعث. فيما في حال ثباته، توقفه عند النقطة العمياء من التاريخ، تتوقف الأماكن، تتوقف الأوطان، تتوقف شرايين الحياة، وتتماوت حضارة، وهذا ما نعيشه لليوم، وهو ما نصر عمدًا على اغتياله فينا وفي حضارتنا، تأويلًا وتقديسًا ونفيًا مطلقًا.

لعسف وهزالة في معنى وجودنا اليوم تبدو المقارنة أكثر فجاجة. والمقارنة تقول إنه في القرن الواحد والعشرين، ودلالة على مستوى السحق والعتمة التي كانت تعيشها أوروبا في تلك العصور، وحين تجرأ أبناؤها على نقد موروثها السابق والذي يشابه ما نعيشه اليوم بعد قرون؛ فقد كتب شلدون غلاوشو Sheldon Glashow أستاذ الفيزياء النظرية في جامعة هارفارد: "إن لاهوتيي القرون الوسطى اتبعوا النهج نفسه في أوربا آنذاك، وكان هذا في حقيقة الأمر، السبب في أن أوروبا وحدها هي التي لم تشاهد المستعر الفائق Supernova الذي حدث في عام 1554، لأنهم كانوا منشغلين بالبحث عن عدّ الملائكة التي ترقص على رأس دبوس". وذلك في تعليقه على حدة التمترس خلف الأفكار المركزية مسبقة الصنع التي أنتجت محاكمة غاليليو حينها، وعدم الانفتاح على الواقع وتفحص واقعه التجريبي والمحدّث لحظيًا مع الزمن. ويبدو أن عوالم شرقنا المستبد لم ولن ترى مستعر الحرية الفائق الذي اجتاح عوالم الشرق منذ الـ 2011، بل اختاروا عدّ شهوات السلطة القابعة في مخيلة كل من يفترض نفسه زعيم أمة، خالدًا، فذًا أوحدًا، إلهًا مقدسًا على الأرض! يأمر بإعدام أي فكر أو مبدع فينا.

ومع هذا لازال الكثير منّا كغاليليو يركلون الواقع بفكرهم الخلاق ويرددون: الحرية تليق بنا رغم تماوتنا الكارثي أمةً وحضارةً وبشرًا!

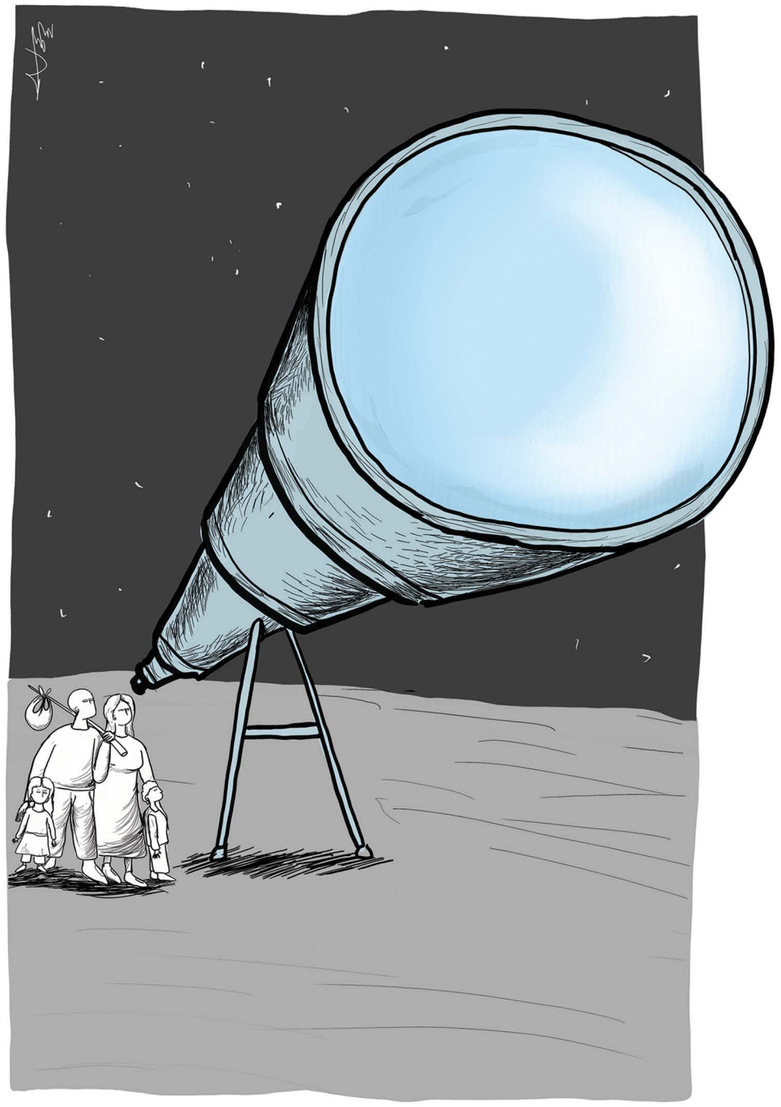

أطفالنا والسردية الصادقة أولوية لا رفاهية

علي الدالاتي

بعد شهر مليء بالذكريات الأليمة؛ كمجزرة داريا ومجزرة الكيماوي في غوطتي دمشق، وبينما كنت كآلاف السوريين والسوريات مشغولاً بأخذ شهادات وتجهيز مواد صحافية، أو المساهمة بأخرى حقوقية بغرض الحفاظ على السردية العامة لما حدث خلال سنوات الانتفاضة السورية، وخاصة في وقت يسعى النظام وحلفائه من الاحتلالين الروسي والإيراني إلى تزوير تلك السردية، ويساعدهم بذلك رتل من الدول المطبعة أو الراغبة في التطبيع مع المجرم القابع في دمشق.

وكوننا من مجموعات من السوريين والسوريات ممن لم يفقدوا الأمل في تحقيق بعض العدالة التي تأخرت لعقود، محاولين التشبث بالأمل كي لا يُترَك الباب مفتوحاً لنظام الأسد لتغيير السردية كما يشاء، والاستمرار بارتكاب المجازر بحق السوريين لعقود قادمة!

فأحد أصدقائي عندما سألته لماذا شاركت بالثورة قال لي: "كي لا يحكم أحفادي حافظ السابع عشر"، وفي خضم تلك المحاولات التي تسعى لمنع النظام المجرم من تكرار ذات المجازر من جديد، ولإيصال صورة الثورة الحقيقية للعالم، بعد حملات التوجيه والدعاية السلبية التي ما برح النظام يمارسها منذ بداية الثورة، وقد ازدادت في الأعوام الأخيرة.. وسط تلك المعمعة انتبهت إلى خبر يبدو عادياً، بأن أكثر من ثلاثة ملايين طالب سيلتحقون بالمدارس التي يسيطر عليها النظام السوري، وسيؤدون التحية لصورة قاتل مليون سوري مثلهم، وربما قاتل أب وأخ لأحدهم، أو وربما عائلته/ـا بأكملها!

أن يكون الناجي الوحيد من مجزرة مجبوراً على تأدية التحية لذات المجرم الذي قام بالمجزرة، فالموضوع سيطر على تفكيري لأيام، وخاصة بعد أن شاهدت فيديو انتشر مع افتتاح المدارس لمسرحية يمثل فيها أطفال المدرسة، والمدرسة في منطقة يسيطر عليها نظام الأسد. ويظهر في المشهد طفلان، أحدهما في دور شاب يرغب بالهجرة كما هي رغبة ملايين السوريين، أما الثاني فظهر ببدلة عسكرية، وألبسوه معها دور المزاود الذي ينصحه بالبقاء ويذم الغربة بأسطوانة أصبحت مشروخة، وواضح أن اللباس العسكري لغاية دمج الوطن بأنه الخدمة العسكرية في جيش بشار الأسد! تنتهي المسرحية بلقطة حاسمة تشبه نهايات الأفلام الهندية؛ فيلبس الطفل الذي كان يريد الهجرة سترة عسكرية عليها علم نظام الأسد!

ملايين الأطفال السوريين مجبورين على الوقوف صباحاً في حرّ حزيران وبرد كانون، وتحمل أمطار وثلوج في سبيل إلقاء التحية للأب القائد! وأحياناً يمتد الوقوف لرؤية ذات المسرحية التي تكلمنا؛ فكل ما يجمع تلك الفعاليات هو تمجيد القتلة، بالإضافة إلى أنها جميعها تملك ذات الإخراج والتنسيق الفاشل، والنص الركيك، ضمن قواعد مدرسة السرقة والسوقية. ولم لا؟ فالنظام المدرسي بالمجمل في سوريا الأسد مسروق من كوريا الشمالية أو مستعار منها، فالديكتاتوريات لا تسرق بعضها، بل يسرقون الشعوب ويقتلونها ويدجنونها لتخدم الأب القائد.

تلك الملايين من الأطفال عليها مرتين في الأسبوع على الأقل الوقوف بأرتال لتحيي صورة المجرم، وتردد الشعارات الأسدية، وتخضع لباقي طرق تعميد العقول في مذبح سوريا الأسد.. يجب أن تكون مصدر قلق وخوف؛ لأن ما يُزرع في عقولهم اليوم هي أفكار المجرم وضرورة تمجيده!

ومن واجبنا عليهم بالمقابل إيصال السردية الحقيقة لهم. كما علينا أن نخوض ذات النقاشات التي خضناها مع أنفسنا ومع ذوينا قبل اثني عشر عاماً، عن ضرورة الثورة وأهميتها، وأن حقوق الإنسان مكفولة بالشرائع السماوية والقوانين الأرضية.

ولكن الأغرب أن من سنخوض معه النقاش هم أبناء من خاضوا ذات النقاش من موقعنا قبل أن يقتلوا على يد النظام المجرم أو يغيبوا في معتقلاته!

تلك المفارقة هي بذات نفسها مرعبة؛ أن يقوم المجرم بقتل والد الطفل أو يعتقله لسنوات، أو على الأقل يفعل ذلك مع أحد ذويه، ثم يأمر بأن على ذاك الطفل أن يؤدي التحية له، وأن يردد الشعار الذي كان يردده أحد زبانية المجرم بينما يقتل والده أو يعذبه!..

هؤلاء الأطفال بنظري هم أحق من نصرف لهم وقتنا وجهدنا في سبيل إيصال السردية الصحيحة لهم؛ بدل أن ندخل أنفسنا في معارك بينية دونكيشوتية نحن وقضيتنا في غنى عنها. وذلك إن أردنا فعلاً المحافظة على تلك الأجيال القادمة من أن تتم أدلجتها لتصبح في قطعان الشبيحة أو الميليشيات الطائفية المرتزقة أو عصابات المخدرات!

اللاجئ وحيداً أمام تجاذبات السياسة التركية

دلال إسحق

أنا آغا وأنت آغا، فمن سيحلب البقرة؟

بهذا المثل الذي انتشر مؤخراً على وسائل التواصل التركية، يحاول المواطن التركي استدراك التملص من موجة العنصرية وطوفان القرارات التي صدرت مؤخراً بحق الأجانب على الأراضي التركية، كاللاجئين أو ممن يحملون الإقامات على أنواعها، والتي خلّفت موجة هجرة جديدة قد تكون بحجم مثيلتها التي حصلت في عام 2015. وبالتوازي مع هذه المناشدات التي هي بالأصل تحمل نبرة عنصرية طبقية، شهد عدد من القطاعات الصناعية والتجارية حالات ركود بسبب هجرة اليد العاملة، حتى وصل الأمر ببعض البلديات والمؤسسات بالبحث عن اليد العاملة والنداء على من يرغبون بالعمل عبر مكبرات الصوت. فهل بات يدرك المواطن التركي اللعبة التي يلعبها سياسيو المعارضة، بخطاباتهم المحرضة على الأجانب؟

بيئة غير مواتية للاجئ

قد يعتقد البعض أن التصريحات الأخيرة للحكومة التركية، والتي جاءت على شكل تقارب مع نظام الأسد هي السبب الوحيد في غليان مجتمع اللجوء، لكن في الحقيقة هناك أسباب أخرى كثيرة؛ فموجة الغلاء التي بدأت مع الحرب الروسية الأوكرانية، بالإضافة لعدم وجود قوانين جدية تحمي حَمَلة الحماية المؤقتة من الترحيل القسري إلى سوريا، وتنظم معيشتهم، بالإضافة لأسباب أخرى فردية، هي ما جعل تركيا بيئة غير مواتية للاجئ.

مقتول هنا، مقتول هناك

يقع اللاجئ اليوم بين خيارين أقربهما الموت؛ ففي الآونة الأخيرة، بتنا نسمع ونرى حوادث عنصرية كثيرة يتعرض لها اللاجئ، لم يكن آخرها مقتل الشاب فارس العلي. كما لم ينجُ من هذه النهايات من سلكوا دروب الهجرة غير الشرعية؛ فبين وقت وآخر تردنا حالات موت من المرض أو الجوع والبرد أو الغرق في طريق اللجوء. ومن الملاحظ عدم اقتصار الهجرة على اليد العاملة أو الطبقة المتوسطة والفقيرة، بل أصبحت خياراً وحيداً حتى لدى ميسوري الحال من اللاجئين، فعدد من أصحاب المشاريع والمعامل قاموا بتصفية أعمالهم في تركيا والتوجه إلى بلدان أخرى قاصدين بيئة استثمارية أكثر أماناً واستقراراً.

بين الإضراب وقافلة النور

حالة من التخبط ظهرت في الفترة الأخيرة، فقد دعا عدد من رجال الأعمال والسياسيين المحسوبين على المعارضة السورية إلى إضراب عن العمل في تركيا، وبالطبع هذه الدعوة وُجِهت لليد العاملة اللاجئة عموماً، والسورية على وجه الخصوص، حيث لاقت معارضةً واحتقاناً رافق الدعوة من قِبل جهات سورية وتركية.. بالتوازي مع هذه الدعوة بدأ الحديث عن تجهيز قافلة قوامها من اللاجئين تنوي اقتحام الحدود التركية الأوروبية. قد تعيدنا هذه القافلة إلى محاولة جرت سابقاً باسم "قافلة الأمل" حيث سهّلت الحكومة التركية نقل عدد كبير من اللاجئين وقتها نحو الحدود الأوروبية، إلا أن المحاولة فشلت بالنسبة للاجئين كونها كانت مرتبطة بالسياسة التركية للضغط على دول الاتحاد الأوروبي، أما "قافلة النور" التي تتجهز حالياً والتي وصل تعداد أفرادها -على وسائل التواصل- نحو 85 ألفاً حتى لحظة كتابة هذا المقال، تصرح عبر معرّفاتها، بأن لا ارتباطات لها، ولا نوايا سوى الخلاص من الجحيم الحالي.

لاجئون بلا مصير

منذ ما يقارب الشهر انطلقت حملة أخرى تحت وسم "لاجئون بلا مصير" هدفها تسليط الضوء إعلامياً على أوضاع اللاجئين في تركيا، حيث وصل مستخدمو الوسم على وسائل التواصل إلى نحو مليونين ونصف، شاركت فيه عدد من الشخصيات العامة، لكنها إلى الآن لم تأتِ بأي ثمرة.

تغاض تركي ودولي يزيد الطين بلة

مع كل ما حصل ويحصل، لم تتحرك الحكومة التركية للحد من تنامي الخطاب العنصري، أو لسنّ قوانين وتشريعات تسهّل عيش مكوّنات مجتمع اللجوء على أراضيها، بل اكتفت بالتغاضي عن المهاجرين المتوجهين من كافة الولايات التركية نحو حدودها مع أوروبا، ويعود هذا التغاضي لقرب الانتخابات التركية المقررة في منتصف العام القادم، ولكيلا تترك ثغرة للمعارضة تصطاد منها عثرات الحكومة.

هذا التغاضي ينعكس سلباً فقط على اللاجئ الذي كان يظن في مرحلة ما أنه محمي من قِبل حكومة العدالة والتنمية، والآن بات وحيداً مشرعاً على تجاذبات السياسة التركية.

في المقابل لم يتحرك المجتمع الدولي قيد أنملة لحماية أو مساندة اللاجئ في سعيه للحصول على الأمان والاستقرار.

ما بعد الانتخابات

يتساءل البعض بإمكانية عودة البيئة التركية حاضنة للاجئين كما كانت من قبل بعد انتهاء الانتخابات. كون بعض السياسيين عزوا سبب تغيير السياسات التركية تجاه اللاجئين بالمرحلة فقط. هذا التساؤل يعيد البعض إلى دائرة الانتظار وعدم التحرك حالياً من تركيا. ربما يكون خياراً صحيحاً، إلا أن الحمل الرئيس لا يقع على عاتق الحكومة، بل على المواطن التركي؛ فمثلما ذكرنا سابقاً أن البيئة الاجتماعية التركية لم تعد بيئة حاضنة للأجانب.

وأخيراً، قد تكون هذه بعض العقبات التي تواجه اللاجئ في تركيا حالياً، وهذه الخيارات المتاحة أمامه، وعلى الرغم من وجودها إلا أنها لا تبشّر بخير، وهذا الأمر بات حملاً يثقل كاهل اللاجئ الذي وصل به الحال إلى التعلق بقشة أمل حتى وإن كانت سراباً.

"ديرتنا" حملة تطوعية واسعة لمواجهة وباء اللشمانيا بريف دير الزور

عبد الله الخلف

"وباء اللشمانيا دفعني للمشاركة في حملة بسبب الأمراض التي انتشرت بيننا انتشاراً ملفتاً وبشكل مقلق"، بهذه الكلمات بدأت هناء الأسود البالغة من العمر 34 سنة، وهي ربة منزل تنحدر من إحدى قرى ريف دير الزور الشرقي، المشاركة بحملة أطلق عليها اسم "ديرتنا"، وهي مبادرة تطوعية انتشرت على نطاق واسع، وتفاعل معها سكان المنطقة ونشطاء منصات التواصل الاجتماعي، وشملت مناطق سيطرة الإدارة الذاتية في محافظة دير الزور. وتهدف المبادرة لتنظيف الشوارع من القمامة المتكدسة خلال الفترة الأخيرة، إضافة إلى أنشطة أخرى مرتبطة بنشر التثقيف الصحي والبيئي والتوعوي لمواجهة التحديات المرضية وانتشار الأوبئة في منطقة عانت من حروب وصراعات عسكرية على مدار العشر سنوات الماضية.

وتقول هناء في حديثها لمجلة طلعنا عالحرية إنها شاركت في الحملة بعد أن سمعت بها عبر موقع التواصل الاجتماعي الفيسبوك، لأنها تلمست خطر انتشار النفايات على الصحة العامة، وكيف تتسبب بأمراض وأوبئة مثل اللشمانيا وغيرها التي انتشرت بشكل كبير في المنطقة خلال عامي 2019 و2020، وتزامنت مع انتشار فايروس كورنا في محيط المنطقة.

وتؤكد هذه السيدة على ضرورة أن تكون هناك استمرارية لهذه الحملات التطوعية، التي تشجع الأهالي على الاهتمام ببلداتهم وقراهم حسب رأيها، وأضافت قائلة: "شاركت أنا وعائلتي بهذه الحملة عبر تنظيف الشوارع من الأوساخ والأتربة والنفايات، وكثير من الأهالي شاركوا فيها"، وأعربت إنه شعور وإحساس جميل جداً بالتكاتف الذي أظهره أفراد المجتمع، "إذا تكاتفنا فنحن قادرين على حل مشاكلنا وتوجيه البوصلة للسلطات الإدارية".

وشارك في حملة "ديرتنا" مئات المتطوعين حسبما قال ثائر الربيع مدير الحملة، والذي أكد أن مجلس دير الزور المدني وعشرات المنظمات العاملة ساهمت

بآلياتها وموظفيها والمتطوعين، وأشار إلى أن ضعف الإمكانيات وقلة الآليات لدى البلديات الموجودة في المنطقة تسبب بانتشار القمامة بشكل كبير في قرى وبلدات ريف دير الزور الشرقي، ما دعا المجلس والمنظمات لإطلاق هذه الحملة المشتركة بين الأهالي والمجلس والمنظمات، لافتاً إلى أنهم بدؤوا منذ شهرين بالتحضير للحملة، وانطلقت في 24 من آب/ أغسطس الماضي، واستمرت لغاية الأول من أيلول/ سبتمبر الجاري، وذكر في حديثه لمجلة طلعنا عالحرية: "قمنا بتوزيع أكثر من 50 ألف منشور ورقي توعوي حول النظافة والصحة العامة وترشيد استخدام المياه، ووضعنا 300 لافتة كذلك في كافة المناطق المستهدفة". موضحاً أن الحملة استهدفت 12 منطقة، وفي كل منطقة شارك ما بين 150 - 250 متطوع/ة، مدنيين/ات وموظفين/ات في المجلس والمنظمات، "نسعى لترسيخ قواعد النظافة العامة وتعزيز ثقافة التطوع لدى المجتمع، وتحفيزهم على التعاون مع البلديات للحفاظ على مناطقنا".

وينوّه الربيع إلى أنه تم استهداف الشوارع العامة ومكبات النفايات، بالإضافة لسرير نهر الفرات ضمن المناطق المستهدفة، "الحملة لاقت استجواباً ملفتاً من الأهالي، لم نكن نتوقع هذه المشاركة الواسعة".

وقام مجلس دير الزور المدني التابع للإدارة الذاتية بتوزيع المياه الباردة والعصائر على المتطوعين خلال الحملة، كما تم توزيع قمصان كُتب عليها عنوان الحملة "ديرتنا".

صالح العلي "44 سنة" سائق أجرة ينحدر من بلدة هجين بريف دير الزور، يقول إن الأوساخ تراكمت بشكل كبير خلال الآونة الأخيرة، والروائح الكريهة منتشرة في الكثير من الشوارع، فالحملة "جاءت في وقتها" كما يصف.

قرر صالح أن يترك عمله لبعض الوقت من أجل التطوع في الحملة، ويقول: "أحب أن تكون بلدتي نظيفة ومشرقة، ربما تكون البلدية غير قادرة على التخلص من كامل الأوساخ، بسبب نقص في العمال أو الآليات حسب ما يقولون، لذلك علينا نحن كأهالي أن نأخذ المبادرة ونحافظ على نظافة بلداتنا وقرانا".

وتوجد في ريف دير الزور الشرقي الخاضع لسيطرة قوات سوريا الديمقراطية (قسد)، عشرات المنظمات المحلية التي تأسست بعد رحيل تنظيم داعش عن المنطقة، تقوم بحملات ومبادرات خدمية واجتماعية. والجدير بالذكر أن مرض اللشمانيا انتشر بشكل كبير في محافظة دير الزور بالسنوات الماضية، وتم تسجيل آلاف الإصابات فيها. واللشمانيا مرض جلدي ينقله طفيلي تحمله ذبابة الرمل، والتي تتكاثر في مكبات الأوساخ العشوائية والمستنقعات.

عامٌ دراسيٌّ جديد يقضُّ مضجعَ السوريين

علیا زیّون (دمشق)

اعتاد السوريون التحضير لاستقبال العام الدراسيّ، وقد تحوّل هذا التحضير إلى همٍّ جديدٍ يضاف إلى قائمة الهموم السورية الكبيرة؛ ففضلاً عن الدمار الهائل الذي لحق بالقطاع التعليمي؛ حيث لم تعد واحدة من كل ثلاث مدارس داخل سوريا صالحة للاستخدام لأنها تعرّضت للدمار أو للضرر، أو لأنها تُستخدم لأغراض عسكرية، وذلك حسب بيانٍ صادر عن اليونيسف لعام 2021، إضافة لذلك فإنّ انهيار الاقتصاد السوري والانخفاض الكبير في القدرة الشرائية لليرة السورية، وتدنّي مستوى المعيشة داخل سوريا بشكلٍ عام -وفي المناطق الخاضعة لسيطرة النظام بشكلٍ خاص- إلى مراحل لم يسبق الوصول لها في التاريخ الحديث، جعلت الأعباء المادّية لبداية العام الدراسي التي كان يضيق السوريّون عن تحمّلها حتى قبل2011 بعشرات السنين، جعلتها الآن أعباءً مضاعفة إلى الحدّ الذي يعجز معه قسمٌ كبير من السوريّين عن تحمّلها، ممّا يزيد من أعداد الأطفال المحرومين من متابعة تحصيلهم العلمي.

تقول هدى العائدة مع طفلها الوحيد من جحيم النزوح إلى تحت سقفٍ بيتوني هو ما كل ما تبقّى من منزلها في الغوطة: "إذا لم أستطع جمع ثمن الكتب لابني فبالتأكيد لن أستطيع جمع ثمن حقيبةٍ جديدة، سيحمل كتبه في كيسٍ بلاستيكي".

وليس الوضع بأفضلٍ منه في المناطق الأخرى، ففي إحدى قرى القدموس في ريف محافظة طرطوس يقول وسيم وهو ربّ أسرة صغيرة: "هذا العام سيذهب فقط الصغير إلى المدرسة الابتدائية هنا في القرية، أما الكبير فلا أستطيع تحمّل تكاليف المواصلات اللازمة ليصل إلى المدرسة الثانوية في المدينة".

وبحسب تقرير اليونيسيف السابق فإنّ أكثر من 2.4 مليون طفل غير ملتحقين بالمدرسة في سوريا. أمّا الأطفال القادرون على الالتحاق بالمدارس، فإنهم يتعلمون في الغالب في صفوف دراسية مكتظّة، وفي مبانٍ لا تحتوي على ما يكفي من المياه ومن مرافق الصرف الصحي والكهرباء والتدفئة والتهوية.

"إذا أردتم الدفء في الصفّ، ليحضر كل يوم واحدٌ منكم (قنينة) مازوت"! هذا ما قاله مدير إحدى المدارس للطلّاب في منطقة الدويلعة بدمشق!

وأثارت وزارة التربية والتعليم سخرية السوريين المؤيدين منهم قبل المعارضين، بتعميمها لمنشور قبل أيام من بدء العام الدراسي على صفحتها الرسمية على فيسبوك، والذي تحدّد فيه شروطاً تتعلّق بغرفة المقصف وعامل المقصف ومحتويات المقصف. حيث حدّدت الوزارة مجموعة من المواد الغذائية المسموح ببيعها للتلاميذ ضمن المقصف، والتي جاءت على الشكل التالي:

1 - عبوات من الحليب المعقّم أو العصير الطبيعي المعبّأة آلياً، ومأمونة المصدر وخالية من أي إضافات كالملونات أو المنكهات.

2 - مواد غذائية مغلفة بشكل آلي وصحي، ومحفوظة بشكل جيد، وضمن فترة الصلاحية المحددة.

3 - كرواسان مغلف آلياً.

4 - عبوات صغيرة من المكسرات الطبيعية (فستق – قضامة – لوز..) معبّأً آلياً وخالية من أي إضافات.

5 - عبوات صغيرة من الفواكه المجفّفة (زبيب – تمر – تين) وخالية من أيّ إضافات.

إضافة إلى منع بيع عدد من المواد منها المشروبات الغازية والعصائر الملونة والعلكة بأنواعها!

ونظراً لاستحالة تأمين المواد التي سمحت بها الوزارة من قبل أغلبية المواطنين؛ وذلك بسبب ارتفاع الأسعار وتدني الدخل، جاءت تعليقات السوريّين بين استهجانٍ واستنكارٍ وسخرية، وكأنّ السخرية أصبحت ملاذ هذا الشعب المقهور.

كما ارتفعت أسعار الكتاب المدرسي للصفوف الثانوية؛ حيث بلغ سعر نسخة الكتب المدرسيّة للصف العاشر 48300 ل.س وللصف الحادي عشر 54800 ل.س وأمّا للبكلوريا 49800 ل.س، أي أن راتب موظّف كاملاً لا يكفي لشراء نسخة الكتب المدرسية في حال لديه أكثر من طفل واحد في المدرسة.

وأمّا عن أسعار القرطاسية فتبدأ أسعار الدفاتر (100 طبق) من 2000 ل.س، وسعر القلم (رصاص أو أزرق) يبدأ من 500 ل.س، في حين تبدأ أسعار الحقائب المدرسيّة بـ 20000 ل.س، وسعر المريول (الصدرية) المدرسي 20000 ل.س، ومتوسط سعر اللّباس المدرسي للمرحلتين الإعدادية والثانوية 50000 ل.س.

وفي محاولةٍ للتخفيف من حنق الشارع المؤيد وسخطه بسبب التكاليف المرتفعة للتجهيزات المدرسية مع تدني أجور العاملين في الدولة، فقد أصدر بشار الأسد مرسوماً بصرف منحة بقيمة 100000 ل.س لجميع العاملين في الدولة والمتقاعدين.

قد يكون تدهور المدارس والتعليم في سوريا نتيجة طبيعيّة للحرب ولاستمرار حكم آل الأسد لأكثر من اثنين وخمسين عاما، تحولت فيها البلد إلى مزرعة لا تُراعى فيها أبسط حقوق الإنسان. بينما تتم أدلجت عقول الأطفال منذ الصغر في منظمة الطلائع والشبيبة لتصنع عبيداً لا جيلاً يبني الوطن..

ولكن ورغم سوداويّة واقعنا، فلا نستطيع إلّا أن نربّي الأمل ونعقد خيراً على جيلٍ لا يزال يستيقظ صباحاً ليذهب إلى المدرسة.

في مدينة الرقة

تنفيذ مشاريع خدمية بهدف تعزيز الأمن المجتمعي

كمال شيخو

منذ تحرير مدينة الرقة شمالي سوريا من قبضة تنظيم (داعش) المتطرف نهاية 2017 ومنظمات المجتمع المدني تنشط في ورشات بناء وإصلاح. تارة تنظم تدريبات وورشات حوارية، أو تطلق حملات مناصرة لمعرفة احتياجات المنطقة والوقوف عند المخاوف الأمنية، وتارة أخرى تنفذ مشاريع خدمية ذات طابع أمني بالتنسيق والتعاون مع قوى الأمن الداخلي ومجلس الرقة المدني، لتعزيز الأمن المجتمعي وحماية سكان المنطقة. وتعتمد بشكل كبير على الجلسات الحوارية بين سكان المدينة وقوى الأمن ومسؤولي المجلس المدني، حيث اعتاد السوريون عامةً وأهالي الرقة خاصةً الخوف من قوى الأمن وعدم الثقة بالسلطات الحاكمة.

وتبلغ مساحة الرقة نحو 27 ألف كيلومتر مربع. كان يسكنها نحو مليون نسمة قبل 2011، أما اليوم فيقدر عدد العائدين إليها بنحو 300 ألف، وهناك قسم من النازحين قدموا من المناطق المجاورة واستقروا فيها. وقدّرت الأمم المتحدة أن 80% من مساحة الرقة باتت غير قابلة للسكن بعد العمليات القتالية نهاية 2017، وكانت المدينة تعاني من غياب شبه كامل للبنية التحتية الأساسية، لكن بعد تأسيس المنظمات المدنية وتكثيف جهودها التنموية تغير المشهد للأفضل.

تنفيذ مشاريع (أمننا) بنسختها الثالثة

تعمل في مدينة الرقة عشرات المنظمات المدنية. تساهم عبر أنشطتها وأعمالها بتعزيز مفهوم الأمن المجتمعي، ومنها مشروع (أمننا 3) الذي يهدف إلى خلق بيئة حوار شفافة ومباشرة بين السكان والسلطات الأمنية. ويعتبر إطلاق مشروع أمننا خطوة جريئة وتعكس انفتاح قوى الأمن الداخلي على الانخراط مع المجتمعات المحلية وبناء جسور للحوار الشفاف والتعاون، ويرى مدراء وأعضاء هذه المنظمات أن حماية أمن الرقة والحفاظ على استقرارها مسؤولية مشتركة تقع على عاتق الجميع.

وفي هذا الصدد نفذت منظمة (شباب أوكسجين) ترميم وصيانة ممرات الأمن والسلامة للجسر القديم، عبر إعادة بناء أرصفته والمنصفات الطرقية وإنارة عواميد حي الفرات بتركيب /131/ جهاز إنارة، ليتمكن الأهالي والمحلات التجارية من متابعة أعمالهم اليومية.

ونقل أحمد الحمزة مدير المشاريع في أوكسجين أن ترميم الجسر القديم ترك أثراً إيجابياً بالإضافة إلى الجانب الجمالي للجسر: "بعد تأهيل اقواس ومداخل ومخارج الجسر سيساهم بشكل كبير في ضبط عمليات المخالفات المرورية ومنع تجاوز السرعة عند عبور الجسر"، وأكد أن الفريق نفذ مشروع إنارة حي الفرات أو ما يعرف محلياً باسم (حي نزلة شحاذة) الذي يقع على طريق حلب، حيث تمت إنارته بمسافة 4 كيلو متر.

وتابع الحمزة حديثه قائلاً: "ما يقارب 12 ألف شخص استفادوا من المشروع وهم أصحاب المحلات التجارية، ومالكي صالات الانترنت وباعة الخضروات الجوالين، والصيدليات والعيادات الإسعافية ومتاجر بيع الحلويات والمعاهد الدراسية، بالإضافة لورشات الخياطة وصالونات التجميل التي تديرها نساء وفتيات حيث يحتجن إلى إنارة ليلة للتحرك والحماية من حوادث الاعتداء".

وعن نفس الموضوع يقول تركي المشرف مدير البرامج في منظمة (إنماء الفرات) التي تعمل في كل من الرقة وريف دير الزور ومناطق الجزيرة السورية، أن المنظمات المدنية في الرقة نفذت مشاريع (أمننا 3) في الفترة الممتدة من بداية شهر آذار العام الجاري حتى منتصف شهر آب الفائت "عملنا تركز على تعزيز الأمن المجتمعي وسد الفجوة بين أفراد المجتمع وقوات الأمن"، وأشار بحديثه إلى أنهم يؤمنون إيماناً راسخاً بأن أمن واستقرار المنطقة مسؤولية الجميع: "تشمل أفراد المجتمع ومؤسسات الإدارة الذاتية ومنظمات مدنية وشخصيات مجتمعية وشيوخ عشائر، فالمسؤولية تقع على عاتقنا جميعاً".

كما شهدت بلدة الطبقة مشاريع مماثلة ضمن مشروع (أمننا) وعقدت منظمة (أمل أفضل للطبقة) جلسات وملتقيات حوارية بين أبناء المنطقة ومسؤولي المجلس المدني وقوات الأمن الداخلي، ويقول مهند الأحمد مسؤول قسم التواصل والإعلام بالمنظمة إن هذه الحوارات السورية طرحت المزيد من العقبات والتحديات الأمنية والظواهر المجتمعية بهدف إيجاد حلول جذرية.

وقال الأحمد: "عقدنا ورشات بحضور أعضاء لجنة الداخلية لتنفيذ مخرجات الجلسات التي نظمت في إطار مشروع أمننا 3، ورفدت المنطقة بالعديد من المشاريع التنموية والخدمية، مما جعل المنطقة أكثر أمناً واستقراراً"، وتعمل هذه المنظمة بالتشارك مع منظمات مدنية شريكة في تعزيز السلام الأهلي والتماسك المجتمعي، وأضاف قائلاً: "حرصنا على إشراك أفراد المجتمع من ناس عاديين وأكاديميين وإعلاميين من الجنسين وطرحوا تلك الظواهر، مع أفضل الطرق لعلاجها والحد منها".

مشاريع لتحسين البيئة الأمنية

وبحسب مهند الأحمد بدأت الحلقة الأولى من (مشروع أمننا) بعقد جلسات حوارية لتعزيز صلة الوصل بين الناشطين الفاعلين في المجتمع مع الجهات المعنية المتمثلة بلجنة الداخلية وقوى الأمن الداخلي بداية شهر آذار الماضي، لتأتي المرحلة الثانية بتنفيذ مشاريع خلال فترة زمنية محددة وعقدت بهذا الصدد 16 جلسة حوارية حضر كل منها أكثر من 25 شخصية تناولت "ظاهرة تعاطي المخدرات والتهريب والإتجار وعمالة الأطفال، ودور منظمات المجتمع المحلي في تعزيز الأمن المجتمعي، بالإضافة إلى دمج النازحين والفئات المهمشة في المجتمع".

وذكر الأحمد أن ظاهرة عمالة الأطفال تمت مناقشتها في الجلسات وبحث الحضور أسبابها وأثارها وقدموا إيجاد حلول دائمة لها، وبعد مشاركة مخرجات الجلسات مع المجلس المدني بالرقة مع التوصية بضرورة إصدار قانون نافذ للمصادقة عليه للحد وحظر عمالة الأطفال، ليزيد: "قدمت الجلسات مساهمة كبيرة في تسليط الضوء على أهم الظواهر المنتشرة في المجتمع، والأهم من ذلك أفسحت المجال للحضور لتقديم وجهات نظرهم وتقديم الاقتراحات والتوصيات المطلوبة".

وكان لمنظمة (إنماء الفرات) دوراً في إنارة حديقة جواد أنزور بالرقة وتركيب مظلات لمعبر العكيرشي بريفها الشرقي الجنوبي بحسب مالك المبروك مدير مشاريع (أمننا)، وقال: "تم تنفيذ مشروع حديقة جواد أنزور من خلال تقديم أجهزة إنارة وكابل توصيل تيار كهربائي للحديقة، وتركيب حمايات لسور الحديقة وتركيب أبواب"، وبلغ عدد المستفيدين نحو 1500 شخص من سكان الحي والأحياء المجاورة للحديقة، "تحولت إلى متنفس للأهالي وقضاء ساعات في الليل، وبات مكاناً آمناً لزوارها".

ويقع معبر العكيرشي بريف الرقة الشرقي الجنوبي على تماس مع مناطق سيطرة القوات النظامية، وعن أهمية مشروع المظلات، ذكر المبروك أنه: "تم تركيب (6) مظلات انتظار بالمعبر وتركيب مقاعد وتبليط ساحة المعبر، وساهم هذا المشروع بشكل كبير بتحسين أداء عناصر قوى الأمن الداخلي في المعبر"، كما ساهم في تخفيف العبء على سكان المنطقة من أتعاب السفر والانتظار وبلغت الشريحة المستفيدة بحدود (850) شخص في اليوم الواحد، "لكنه ارتفع لأكثر من (5000) شخص في فترة تقديم الامتحانات الإعدادية والثانوية لطلاب المرحلة في المدارس الحكومية؛ حيث يعتبر المعبر الوحيد الذي يربط بين مدينة الرقة بالريف الشرقي الجنوبي الخاضع لسيطرة النظام".

يذكر أن المنظمات المدنية في الرقة اقتحمت ميادين العمل لخدمة أبناء مدينتهم عروس الفرات، وعلى مدار شهور قدمت هذه المنظمات خدماتها مباشرة إلى المجتمعات المحلية و تكفلوا بوصول المساعدات الاجتماعية لأشد الفئات ضعفاً.

وسط عجز السلطات عن تحسين الواقع

أزمة معيشية خانقة تنتج مخلفات سلبية في مدينتي درعا والسويداء

ليث الحوراني - درعا

يعاني غالبية سكان جنوب سوريا في محافظتي درعا والسويداء من أزمات معيشية خانقة كباقي السوريين، بسبب ارتفاع الأسعار بشكل غير مسبوق وقلة المرتبات الشهرية سواء في القطاع الخاص أو العام التي لا تتجاوز 50 دولاراً أمريكياً في القطاع العام، و100 - 150 دولاراً في القطاع الخاص، إضافة إلى الانهيار القياسي لسعر صرف الليرة السورية أمام الدولار الأميركي، الذي وصل إلى أعلى مستوياته في البلاد؛ حيث يسجل سعر صرف الدولار أمام الليرة السورية تصاعداً تجاوز مؤخراً أكثر من 4550 ليرة سورية مقابل الدولار الواحد، وقبل 2011 كان سعره 47 ليرة مع بقاء كتلة رواتب العاملين لدى مؤسسات الدولة نفسها.

وتدهور الليرة ما أسفر إلى زيادة باهظة في أسعار مختلف البضائع والمواد الأساسية، وأرهقت العائلات ذات الدخل المحدود كما أن أعداداً كبيرة من شرائح المجتمع والعائلات أُضيفت إلى الطبقة الفقيرة، بعد أن كانت قادرة على سدّ احتياجاتها من مرتباتها الشهرية سابقاً، وأصبحت الآن بعد هذا الانهيار تستنزف مرتباتها في أول أيام الشهر. وبات ربّ الأسرة يرتبك لمجرد دخول السوق الذي يكفل إفراغ جيبه من مرتبه الشهري بمجرد مروره في شارع واحد من أي سوق، وبات التسوق حلم الكثيرين من السوريين، ويقتصر على العائلات ميسورة الحال، أو الذين توزع أبناؤهم وذويهم في بلاد الشتات ويرسلون مبالغ لإعالة أهاليهم في سوريا.

وبدأت مخلفات هذا الواقع المرير والوضع المعيشي المتردي تنعكس على المجتمع؛ حيث تشهد محافظتا درعا والسويداء جنوب سوريا حالة من الإنفلات الأمني وانتشاراً للبطالة والمخدرات وعمليات السرقة والسطو. ومؤخراً برزت ظاهرة هجرة لأعداد كبيرة من أبناء المنطقة، بسبب انحسار الخيارات في سوريا أمام الفئة الشبابية، خصوصاً مع الوضع الاقتصادي المتدهور في عموم سوريا، وحالة التجنيد الإلزامية التي تلاحق الشباب بعد التخرج من الجامعة أو منذ بلوغ السن القانوني، إضافة إلى أنه لم يعد أي عمل، سواء بالقطاع الخاص أو العام، يكفي لسدّ الحاجات اليومية، لاسيما أن الشباب أمامهم رحلة الإنتاج والتأسيس لبناء الأسرة المستقبلية. واعتبر أحد شباب السويداء أن هذا "مستحيل في سوريا"، مع "انعدام فرص العمل وضعف المرتبات الشهرية وقلة أجور اليد العاملة"، ما جعل خيار الهجرة أو السفر هو أفضل الحلول أمام الكثيرين.

ويقول زياد من درعا إنه مع اقتراب العام الدراسي الجديد فإن استعدادات خجولة يقوم بها معظم سكان محافظة درعا لاستقباله، خصوصاً أن أسعار اللوازم والأدوات المدرسية تشهد ارتفاعاً؛ حيث يحتاج كل طالب بالمرحلة الابتدائية والإعدادية بين 75 - 150 ألف ليرة سورية، ما يجعل الاستعداد للعام الدراسي الجديد حكراً على أبناء العائلات ميسورة الحال فقط، لا سيما مع الغلاء الفاحش بكل مجالات الحياة، سواء بالمواد الغذائية والخبز والأدوية.

أما سعر 8 أرغفة من الخبز في الأفران الخاصة وصل لنحو 3 آلاف ليرة سورية، ومع نظام توزيع الخبز من قبل الحكومة الذي يخصص لكل فرد رغيفين من الخبز في اليوم، بات الحصول على الخبز المدعوم لدى العائلات محدودة الدخل يوصف بالإنجاز الكبير، حتى الخضراوات المنتجة محلياً في درعا باتت غالية السعر، بسبب ارتفاع تكاليف الزراعة والمحروقات وانقطاع الكهرباء عن آبار ضخ المياه، خصوصاً أن سعر اللتر الواحد من مادة الديزل (المازوت) وصل إلى 7 آلاف ليرة سورية في السوق السوداء، كما وصل سعر اللتر الواحد من البنزين إلى 4 آلاف ليرة سورية في السوق السوداء أيضاً، وما يزيد الأعباء والمعاناة على العائلات الاستعداد لقدوم فصائل الشتاء أيضاً؛ حيث بدأ سعر الحطب بالارتفاع وسجل سعر الطن الواحد من الحطب 850 ألف ليرة سورية، ما يجعل الدفء في الشتاء المقبل أمراً صعباً على العائلات المحدودة الدخل.

ووفقاً لخبير اقتصادي سوري فإن "الحكومة السورية اتخذت مجموعة إجراءات، منها زيادة في رواتب العاملين لديها، بالإضافة إلى توفيرها المواد الغذائية الأساسية في المؤسسة التجارية التي تسمح لموظفي مؤسسات الدولة بالشراء بأسعار الجملة كالمواد التموينية الأساسية (السكر والرز والزيت) وحتى القرطاسية والملابس، بأسعارٍ منخفضة عن السوق الحرة، كما عملت على تفعيل (البطاقة الذكية) التي أصدرتها الحكومة للعائلات للحصول على مخصصاتها من المحروقات (البنزين والمازوت والغاز)، وفق أسعار محددة وأرقام وجداول دورية".

ويتابع الخبير: "وقدمت الحكومة مؤخراً منحة مالية قيمتها مئة ألف ليرة سوريّة، للموظفين في القطاع العام وتشمل العسكريين"، وقد احتفت بهذه المنحة وسائل إعلام محسوبة على النظام ووصفتها بـ"المكرمة إلى الشعب". علماً أن نسبة الفقر وفقاً لإحصائيات محلية غير رسمية إلى 90%. وتساوي المنحة الأخيرة مقارنة بسعر صرف الدولار الأمريكي في السوق السورية 23 دولار أمريكي، ولم يغفل عنها التجار الذين سارعوا إلى استقبال المنحة برفع أسعار المواد الغذائيّة.

ووفقاً لجولة ميدانية في الأسواق المحلية جنوب سوريا، سجّل سعر كيلو الخيار 1800 ليرة سورية، والباذنجان 1700 ليرة للكيلو الواحد، بينما البندورة 1000 - 1500 ليرة سوريّة، أما البامية 7500 ليرة، وأربع ليترات من الزيت النباتي 52 ألف ليرة سورية، أما سوق اللحوم الذي يطلق عليه السوريون لقب "السوق المحرم" تعبيراً عن عدم قدرتهم على دخوله، فقد وصل سعر كيلو الدجاج إلى 13 ألف ليرة سورية، واللحم البقري بسعر 28 ألف لكلٍّ كيلو، ولحم الغنم 35 ألف ليرة، وطبق البيض لم ينزل عن سعر 15 ألف ليرة سورية، وعلبة المحارم ذات الجودة المتوسطة وصل سعرها إلى 6200 ليرة سورية، والقلم المدرسي الواحد 1500 ليرة سورية.

واعتبر الخبير الاقتصادي أن حكومة النظام في سوريا ترى أي شيء مقدم للشعب "إنجازاً"، خاصة وأن كافة وسائل الاكتفاء الذاتي والإنتاج المحلي في سوريا تراجعت إلى أكثر من 80% مع استمرار الحرب في البلاد، وعودة مساحات من سوريا إلى سيطرة النظام وزيادة المطالب الشعبية بالتحسين. وسط عجز حكومي عن تلبيتها لعدم توفر الإمكانيات لديها، والفساد الإداري الذي تعاني منه معظم المؤسسات الحكومية.

استجرار الذكرى عند الشاعر عبدالله الحريري

أجرى الحوار الشاعر حسين الضاهر

مثل معظم البدايات كانت بداية الشاعر السوري عبدالله الحريري، المولود في ريف درعا عام 1983، والذي صدرت له مجموعتان شعريتان بعنوان "لا تنس قلبك حافيًا" و"الشهيق إلى الرئة الحرام".

عن خطواته الأولى على درب الشعر يقول الحريري: "لم أكن من أصحاب البدايات الواعدة، نشأت في قرية صغيرة في ريف درعا الشرقي، أنضجتْ شمسُ حوران في وجهي رغيفاً كل صيف، وأكل ترابه من طراوة أصابعي حتى شبع، لذلك لم أرسم سمكة على جدار البيت، ولم أشارك في لوحة الحائط المدرسية. كنت الأول على صفي كعادة بقية إخوتي، وأكثرت من الرسائل الغرامية لزميلات الدراسة؛ كانت أولاها في الصف الثاني الابتدائي على قصاصة ورقية صغيرة حمّلتُها لابن عمتي الذي أعطاها إياها ناهراً: "ولك هاي من عبد الله"! منذ ذلك الحين لا أقول لأنثى (ولك) إلا تحبباً"..

"أول ما كتبته على هيئة شعر كان في الصف السابع، والكسر العروضي الذي نبهني إليه شيخ القرية (الشيخ موسى)، وكان شاعراً، كفأني عن المحاولة مرة أخرى حتى الصف الأول الثانوي، حيث حثني على المتابعة أستاذ اللغة العربية في مدرسة المتفوقين التي التحقت بها، وكان اسمه (محمد درويش)"!

أما عن البداية، وتكرارها، "فهي ليست اختيارية بقدر ما هي طبيعة، لا أقول بفطرة الشعر، بل بالميل الأصيل نحو الكتابة، أما شكلها الشعري فكان لدوافع نفسية واجتماعية وعاطفية؛ فيكفي أن تكون من الجيل الأخير في حياة نزار قباني ومحمود درويش وغيرهما لتصرف اهتمامك بالكتابة إلى الشعر شكلاً، والشعر كأسلوب كتابي يغلب صاحبه قبل أن يغلب سامعه أو قارئه. ما أود قوله: لم تكن البدايات لتتغير لو أعدنا الكرّة في نفس الشروط، ربما كانت لتفعل في شروط مختلفة، لكنها لن تخرج عن الميل للكتابة في طبيعة الكاتب".

تشكل الذاكرة مادة دسمة للكاتب بشكل عام، وللشاعر على وجه الخصوص إن وجد في بيئة ضيقة

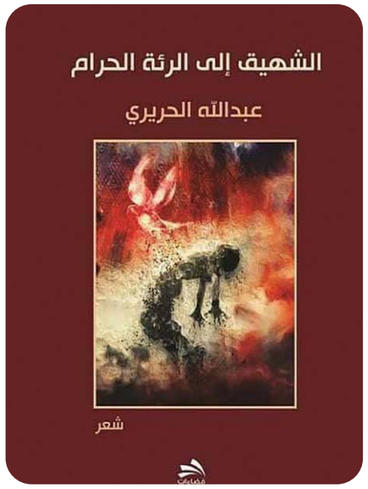

تفتقر للاحتكاك والمعايشة، هل تعتبر كذلك لعبد الله الحريري أم أنه يعتبر استجرار الذاكرة لخدمة القصيدة فعلاً قاسياً؟

أعتقد أن حياة الإنسان لحظة واحدة مستمرة هي (الآن)، وفي هذه اللحظة يعيش في تنازع بين الذاكرة وبين الرؤية/ الآتي، في عملية تشبه البورصة؛ مرة تصعد أسهم على حساب أسهم بينهما. أحياناً تسحبنا الذاكرة إلى قيعانها فلا نخرج إلا بشقّ الأنفس، ولا أعني الذاكرة الشخصية فقط، بل الماضي موروثاً واعتباراً، وغالباً ما يقع الإنسان في حفرة النكوص إلى الماضي في ظروف الضعف والهزيمة على كل المستويات العاطفية والنفسية والسياسية والاقتصادية. من هنا يمكننا أن نرقب توقف أو تباطؤ حركة التحديث في الأدب العربي بعد انكسار ثورات الربيع العربي، بل نجد انصرافاً يقينياً للماضي شكلاً ومضموناً. أما في أحيان أخرى ينصرف الكاتب للرؤية مستشرفاً المستقبل في قراءة إعجازية لواقعه وماضيه، فيبتكر، أو يحاول على الأقل، بالشكل والمضمون وحتى على مستوى الفكرة والصورة وتجاوز الحدود وكسر المألوف.

أما إذا كنت تقصد الوحدة والعزلة كظرف يُلجِئ الشاعر إلى اجترار الذكرى، فربما يقع فيه الشاعر وغير الشاعر بين فينة وأخرى، لكن الاستمرار في هذه الحال يعني برأيي أن الشاعر عاطل عن الشعر، بما تعنيه كتابة الشعر من متابعة الحركة الأدبية والقراءة والكتابة كفعل يومي.. إلخ، وهذه النشاطات بحد ذاتها تباعد بين جدران الوحدة وتبعد شفرة العزلة عن الرقبة.

كونك ابن بيئة ريفية، ما الذي قدمتْه المدينة لك، ومخيم اليرموك خصوصًا؟

يتوق كل أبناء الريف، وأنا منهم، إلى المدن. يتوهمون أنها ستقدم لهم الفرص وتفتح لهم الأبواب، لكن هذا ليس صحيحاً بالضرورة في بلداننا المحكومة بالحديد والنار، فأنت تنطلق من الريف الرحب المحمي بشبكة اجتماعية قوية من تغلغل المخابرات وأجهزة الدولة القمعية إلى مدن تختنق بعناصر الأمن، في الجامعات، والأحياء، والمقاهي، والمكتبات.. مدن تحولت فيها دور السينما لمواخير، والأمسيات الشعرية إلى مهرجانات لعق أحذية وتمسيح جوخ.

حررتنا دمشق من قبضة العادات الاجتماعية والضوابط العامة في الريف، لكنها حصرتنا بحيّزها المراقب، وروضتنا تدريجياً في البارات والمقاهي، فصدّقنا أن الكتابة تكون ببعض الادعاءات؛ كشراء جرائد معينة والقراءة والحديث عن مشاهير الكتّاب وارتياد أماكن بعينها والسهر حتى مطلع الفجر. وربما اعتقد بعضنا أن الفشل المهني والدراسي والعاطفي والعائلي وسيلة مشروعة لرفض واقعنا الرديء. وهل يطمح نظام ديكتاتوري لأكثر من ذلك؟ تفريغ الشباب من جموحه. من هنا يمكن أن نفهم خروج الثورة من الأطراف. لكن دمشق رغم ذلك أهدتنا أصدقاء كثراً، وألجأتنا بقساوتها لأعشاش رحبة في عشوائياتها الطرفية (يذكرني ذلك بأغنية سميح شقير: غرفة صغيرة)، ومنها مخيم اليرموك: الحالة الأكثر صخباً وخصوبة في ذلك الوقت، وأستطيع أن أقول إن أول المشوار بدأ حقيقة في مخيم اليرموك. ومن المحطات المهمة في دمشق (بيت القصيد) الذي يعود الفضل فيه للقمان ديركي بالدرجة الأولى، كان مكاناً لإلقاء الشعر دون مروره على أجهزة الرقابة؛ في قبو فندق برج الفردوس الضيق المكتظ بعشرات المدخنين كان الأكسجين طازجاً والحياة ممكنة.

الملاحظ في ديوانك "الشهيق إلى الرئة الحرام" ذكرك الكثير والمباشر للثورة، على عكس ديوانك الثاني "لا تنس قلبك حافيًا" فقد جئت على ذكرها بشكل رمزي غير مباشر وقليل، فما الذي قدمته الثورة لعبد الله الشاعر، ولقصيدته؟

كُتبت نصوص الديوان الأول أثناء الثورة، وربما يلمس قارئه التدرج الزمني منذ انطلاقتها حتى الهروب من مخيم اليرموك بعد سيطرة داعش وجبهة النصرة عليه، حيث طبع ونشر عام 2016 أثناء الحصار. من الطبيعي إذاً أن تعمّ مفردات الثورة والهتاف والمعتقل والحرب والموت والجوع أرجاءه. أما الديوان الثاني فكان بعد وصولي إلى تركيا، إنه أشبه بالاسترجاع للتجربة، وكذلك محاولة لاستعادة الطبيعي بعد النجاة من دائرة التهديد اليومي بالموت قصفاً أو بقطع الرأس. يشكّ الناجي، بعد ثماني سنوات من الصدمة المستمرة، بطبيعيّته وقدرته على الحب والضحك والغناء والرقص، وربما بقدرته على الكتابة أيضاً، لكنه في محاولته للعبور في هذا البرزخ لا يستطيع التخلص من نجيل ذاكرته الحمراء، لذلك يتشرب كل شيء يكتبه بالموت بعد أن كان الموت هو المحرك المباشر لما يكتب.

بالإضافة لذلك كانت هناك مسؤولية تجاه الضحايا، أخلاقية ووطنية، فبعد الانحرافات الكبيرة في المسار توجبت المراجعات، أنا لا أجزم بنجاحي في المراجعة، ولكنها كانت على الأقل بمثابة وقوف توصيفي على اللحظة أمام مفاهيم مثل (نحن) المنقسمة، و(سوريا) المجزأة، و(الثورة) المغيبة في ظلّ تصدر أمراء الحرب والعملاء وأصحاب المصالح. إن جاز القول، كان هناك محاولة للبحث عن الثورة (أو عن الثورة الجديدة) التي ليس من السهل توقع أماكن انبعاثها من جديد ضمن المناطق السورية المسحوقة.

أتيت على ذكر "اسطنبول" عدة مرات في ديوان "لا تنس قلبك حافيًا" ومن بينها قصيدة بعنوان "في اسطنبول أنا إثنان"، هل تعتبر نفسك عشت حالة تشظي في لجوئك؟ وبعد سنوات من هذا الديوان، هل ترى نفسك قد نجوت من ذاك التشظي "إن وجد"، وما الذي استطاعت تقديمه اسطنبول لحالتك الشعرية غير المدن الأخرى التي عشت معها؟

أعتقد أن حالة التشظي بالنسبة لنا بدأت ما قبل اللجوء، حيث انهارت تصوراتنا الراسخة عن الوطن والشعب والمجتمع والعدو والوطنية والخيانة وغيرها بعد انحياز قسم لصف النظام وانجرار قسم باتجاه تنظيمات راديكالية لم تقتصر على داعش والنصرة. لكن هذا التشظي أشخص نفسه عندما أيقنّا بالهزيمة. نحن هُجّرنا في منتصف عام 2018، وعلى الرغم من أنه لم يكن انتصاراً للنظام لكنّه كان هزيمة لنا؛ حُلمنا بالرقص في ساحة الأمويين وبالدولة الديمقراطية، قبور أصدقائنا الذين ارتقوا خلال سنوات الحرب والحصار، كل ذلك تساقط منا مع حركة الحوافل التي أقلتنا باتجاه الشمال السوري.

أما استنبول فهي جزء من تاريخ تعلمناه مغلوطاً، وأراد البعض أن نراجعه بشكل مغلوط أيضاً. قبل مئة عام من وصولي إليها كان التاريخ يتململ بكتفيه ليغير وجهته، ولم يكن علي إلا اقتفاء الأثر في شوارعها وساحاتها وقراءة حركة التغير في ملامحها. رأيتها كعجوز تُجري كل يوم عملية تجميل، تحاول إنكار تأثير الزمن بها، ولا أحد يهمس في أذنيها: "كفاكِ، فالزمن لا يعود إلى الخلف"، لكنها لن تستطيع قهر طبيعتها. منذ مئة سنة واسطنبول تحب السياح أكثر من أبنائها، فكيف لها أن تحبنا وهي ترانا فطوراً نلتصق وننمو فوق قشرتها العتيقة؟ إنها تجذبنا إليها لتقول حين نركن إلى عباءتها: "لقد اقتربتم كثيراً، هاكم باب البحر، واتركوا لي وجوهاً تتبدل كل ليلة في شوارعي المكتظة". إنها مدينة جميلة، ملولة، يكاد الزهايمر يأكل عقلها.

هناك من يعتبر الشعر حالة تجدد على مستوى النفس، وهناك من يعتبره موت مكرر، ما هي نظرتك لهذا الكائن؟

الكتابة بشكل عام فعل باحث عن الخلود، محاولة اللاموت عن طريق القدرة على الإيجاد/ الخلق. قد يخالف بعض الكتّاب ذلك لما ينطوي عليه من أنانية الكاتب نفسه، ومن دحض لدوافع الكتابة المدعاة، لكنه بهذا المعنى فعل تجدد. هذا يرجعنا إلى طرحك بأن الذاكرة مادة دسمة للكتابة، لأن الكاتب يميل إلى إحياء كل شيء، يحاول توسعة الآن باتجاه الماضي، إنه ببساطة لا يحب الموت، ولو اتسع المجال لأمكننا الخوض في دافع الانتحار عند الكتّاب كمحاولة هروب من مقاومة الذي لا يقاوم، بمعنى "وداوها بالتي كانت هي الداء".

قد يتحرر الكاتب من سطوة هذا الدافع الذاتي البحت، لكن على حسابه الخاص. يحدث ذلك حين يضيق بابه إلى الداخل ويتسع على الخارج، وهنا يصل لمبتغاه في موت متكرر من أجل نفخ حياة دائمة فيما يكتب: موت أو قتل مؤقت للذات، التي لا تفتأ تحاول فرض سطوتها في نوب وثورات متكررة، لصالح الفكرة والفن، أي لصالح القيمة الجمالية.

الشعر أميل للجمال، لكن يسهّل انقياد الشاعر للخطابية والغائية وكثيراً ما يشغله الزخرف وينقاد لمغريات الوصول السريع والشهرة، وهو بذلك يخرج عن طبيعته، فيصير جهده محاولة فاشلة لمقاومة الموت بالموت. على الشاعر أن يدرك بأنه الولد المتمرد في عائلة الكتّاب، يستقل بنفسه عن مشغلات ومروجات الكتاب من صحف ودور نشر وقنوات إعلامية وغيرها، ويراهن على جهده وحده "ليكون يوماً ما يريد"، وقلة من ينجحون بذلك.

رؤية في أسباب غياب المسرح ودوره الرّياديّ

ياسمين نهار

حظيَ المسرح منذ أقدم العصور بأهميّة كبرى؛ نظراً لجماهيريّته الواسعة، وتأثيره الاجتماعيّ الكبير. صحيح أنّ لفنّ السّينما الذي ظهر في نهايات القرن التّاسع عشر طابعاً جماهيريّاً، لكن استيعاب المسرح لعدد كبير من النّاس مختلفي الاتّجاهات والاهتمامات والمستوى الثّقافيّ وتفاعل الجمهور مع ممثّلين من لحم ودم جعل تأثير المسرح مباشراً وسريعاً؛ ذلك أنّ المتفرّج يرى الممثلين وتعابير وجوههم، ويسمع أصواتهم واختلاف نبراتهم ممّا يخلق حالة من التعاطف والاندماج مع ما يحدث على الخشبة؛ لذلك رأى الشّاعر والنّاقد المسرحيّ الفرنسيّ "أنتونين آرتو" أنّ المسرح ظاهرة مُعدية، تنهار أثناء العرض الحواجز بين الخشبة والصّالة، بين الجمهور والممثّلين، بين الواقع والتّمثيل؛ فلا غرابة إذاً أن ينتقل أثر الخشبة إلى الجمهور. في ضوء هذه العلاقة الجدليّة بين خشبة المسرح والجمهور لم يعد مقبولاً أن ينزويَ الجمهور في صالة معتمة يتلقّى العمل دون إبراز أيّ ردّة فعل؛ بل أصبح طموح المسرحيّين مسرحاً يبني الإنسان ويساهم في تغييره؛ ولتحقيق التواصل الفعّال بين الخشبة والصّالة كان بعض المخرجين يقومون بوضع ممثّلين بين الجمهور يحاورون ممثلي الخشبة المقصود من هذه التّقنية تنبيه المتفرّجين إلى الحالة المثلى التي ينبغي أن يحقّقوها. أمام الدّور الكبير للمسرح يمكننا أن نوجز بعض النّقاط التي تقف حجر عثرة أمام أيّ انطلاقة حقيقة للمسرح وهي:

1 - اعتبار المسرح وسيلة نضال وتعبئة:

إنّ ما أفرزته المرحلة السّابقة أو حتّى المرحلة الرّاهنة من قتل وحروب ودمار وتهجير لا يسوّغ الدّور التّحريضيّ للمسرح وحين يركن المسرح إلى معالجة القضايا السّياسيّة يصبح مجرّد نقد ساخر، وعرض آنيّ يزول بزوال الحدث المحرّض؛ لأنّ المسرح السّياسيّ يميل إلى المباشرة والدّعاية الأيديولوجيّة، ويبتعد عن الأشكال المسرحيّة النّاضجة التي تطوّر الفرد وتعمّق نظرته إلى نفسه وإلى غيره، وهنا لا بدّ من التأكيد على ضرورة انفصال المسرح عن الأيديولوجيا؛ لأنّ الأيديولوجيا تطمس الشّكل الفنيّ للعرض، وتبقي الجمهور ضمن إطار سطحيّ نمطيّ؛ لذا وجب على صانعي العرض المسرحيّ والمهتمّين به أن يحرّروه من أحاديّة المنظور؛ ليمارس دوره في الكشف والتّغيير وهذا ما ذهب إليه المخرج المسرحيّ والكاتب الدراميّ غسّان الجباعي حين قال: "فلا أظنّ أنّ للفنّ والثّقافة -بعامة- وظيفة تبشيريّة أو تعليميّة أو (تسييسية)! لأنّ وظيفته موجودة فيه، في جوهره، في البحث الدّائب عن الجمال الكامن في الإنسان والمجتمع والطّبيعة والفنّ -بالضرورة- حارس للقيم العليا للإنسانيّة وملتزم بالدّفاع عنها: حقّ الحياة والحريّة والكرامة والعدالة والحبّ والمساواة والتّعبير والمشاركة، وكلّ القيم الأخلاقيّة التي ناضلت البشريّة من أجل تكريسها -عبر مسيرتها الطويلة-، محوّلة ذلك الوحش البدائيّ إلى إنسان متحضّر، والتي تعتبر اليوم قيماً وحقوقاً من حقوقه الأساسيّة والمكتسبة".

وانطلاقاً من هذا المبدأ نطمح أن يضيء المسرح جوانب من الوجود الإنسانيّ ويعمّق فهمنا للإنسان والعالم بأبعادهما الفيزيقيّة والميتافيزيقيّة بعداً عن (القفشات) التي اعتمدها المسرح السياسي في مراحل سابقة ولا وظيفة لها إلّا تخدير الجمهور والتّنفيس عن معاناته. ولن يحقّق المسرح دوره الرياديّ إلا حين يسمو فوق الصّراعات الأيديولوجيّة، ومجريات الحياة اليوميّة، ويتوجّه إلى وعي الإنسان بوصفه كائناً قادراً على تغيير ذاته وتطويرها باستمرار.

2 - المسرح والرّقابة:

يعاني المسرح وغيره من الفنون من هيمنة مؤسّسات الدولة على نشاطاته؛ بدءاً من تشجيع الأعمال الهزيلة سريعة الرّبح البعيدة كلّ البعد عن القضايا الجوهريّة التي تؤرّق الإنسان، وليس انتهاء بمنع عرض الأعمال الجادّة الناقدة. من المؤكّد أنّ الأنظمة الاستبداديّة تعلّم مدى تأثير التلفزيون والمسرح والسّينما نظراً للجماهيريّة الواسعة التي تحظى بها هذه الفنون؛ لذا جعلتها وسيلة من وسائل تغييب وعي الجمهور والسّيطرة عليه، ولابدّ من تأكيد ضرورة امتلاك أقطاب العمل المسرحيّ (المؤلّف، المخرج، الممثّل، الجمهور..) حريّة التّفكير والتّعبير لكي يحقّق العرض المسرحيّ صفة الدّيمومة والتّأثير البعيد.

3 - قلّة النّصوص القابلة للتجسيد:

غير خافٍ علينا الأهميّة الكبرى للنّصوص المسرحيّة بوصفها مادّة أدبيّة قابلة للقراءة يمكن أن نضيفها إلى تراثنا الأدبيّ، إلّا أنّ مسرحنا يعاني من قلّة النصوص القابلة للتجسيد على خشبة المسرح؛ فنحن لا نريد أن ينهض المسرح بوصفه نصّاً أدبيّاً -رغم أهميّته- قابلاً للقراءة فقط، بل نريده فنّاً قابلاً للتمثيل على خشبة المسرح يؤثّر في النّاس؛ لأنّ التّطوّر نتاج متناقضات متصارعة، وتقابُل بين قيم مختلفة وهذا ما يحقّقه المسرح بسبب وجود الصّراع الذي يعدّ الشّريان المغذّي لأيّ عمل مسرحيّ يدفع الأحداث ويطوّرها، فإذا لم يكن الصّراع قويّاً وصاعداً ومستمرّاً طوال مدّة العرض فَقَدَ العرض جاذبيّته وقدرته على التّأثير.

4 - موت الكاتب المسرحي:

ومن اللّافت للنّظر أنّ عدداً كبيراً من المخرجين انصبّ اهتمامهم في الآونة الأخيرة على الإبهار البصريّ أكثر بكثير من اهتمامهم بالنّصّ المسرحيّ القويّ.

صحيح أن الوسائل البصريّة تساعد الممثّل على أداء دوره وتسهّل فكرة العرض لكن يجب ألّا تكون هذه الوسائل على حساب النّصّ المسرحيّ؛ لذلك لم يعد غريباً انتشار مصطلح "موت الكاتب المسرحي" بين المسرحيّين ونقّاد المسرح، وهو مصطلح بعيد كلّ البعد عن مقولة "رولان بارت" "موت المؤلف" التي لا تعني معناها المباشر؛ وإنّما تعني تحرير النّصّ من سلطة المؤلّف، وإفساح المجال للقارئ ليكتشف دلالات جديدة للنّص، بهذا الفهم تتخذ عبارة "موت المؤلّف" معنىً إيجابيّاً لأنّها تعني ولادة قراءات جديدة ومتنوّعة للنّصّ تنوّع القرّاء وتعدّدهم.

أمّا "موت الكاتب المسرحيّ" فتتخذ معنى سلبيّاً وتعني تراجع النّصّ المسرحيّ القويّ أو توقّف الكتابة المسرحيّة التي من أهدافها التّصدي للمواضيع والقضايا التي تؤرّق الإنسان وتشغل تفكيره.

5 - رفض بعض الكتّاب أيّ تعديل على نصوصهم:

ثمّة مشكلة تواجه العروض المسرحيّة رغم وجود النّصّ المسرحيّ القويّ أحياناً، وهي رفض الكاتب المسرحيّ أيّ تعديل أو تحوير في نصّه، ممّا يحرم المخرج تحقيق رؤيته الإخراجيّة الموسّعة لأبعاد النّصّ.

حين يتنازل المؤلّف عن "قدسيّة نصّه" يصبح العرض عمليّة تشاركيّة بين المؤلّف والمخرج والممثّلين. وهنا يحقّ للبعض أن يتساءل لماذا يذهب النّاس إلى المسرح إذا كان بإمكانهم قراءة النّصّ في البيت؟! يمكننا القول إنّ النّاس يذهبون إلى المسرح من أجل مشاهدة الممثّل الذي لا يقلّ إبداعاً عن إبداع مؤلّف النّصّ، لأنّ الممثّل لا يكتفي بأداء الدّور الموكل إليه بصورة آلية بل يضيف إلى الحوار ويطوّر دوره وذلك عن طريق الاستفادة من الملاحظات الإخراجيّة، والملاحظة الشّخصيّة لأشخاص يوجد تقاطع بينهم وبين الدّور الموكل إليه. بيد أنّ الممثّل الحقيقيّ لا يكتفي بالأمرين السّابقين بل يطوّر أداءه عن طريق قراءة ما بين السّطور ليمنح الدّور بُعداً جديداً؛ لذا وجب أن يكون الممثّل مثقّفاً وموهوباً ليقنع المتفرّجين الذين تكبّدوا عناء الذّهاب إلى المسرح، وليملأ الفراغات التي تركها كلّ من الكاتب والمخرج؛ ويتمّ ذلك وفق حالات يقتضيها السّياق الدّراميّ وتطوّر الصّراع، حينها يستطيع كاتب النّصّ أيضاً تعديل نصّه بعد كلّ عرض حسب ردّة فعل الجمهور وما يبديه من استحسان أو استهجان أو إعجاب أو رفض لأيّ فكرة تُعرَض.

صحيح أنّ الكاتب المسرحيّ يعبّر عمّا يريد إيصاله عن طريق الكلمة لكن يجب ألّا تغيب خشبة المسرح عن تفكيره أثناء الكتابة أو أثناء إجراء أيّ تعديل على نصّه.

وفي الختام نقول إنّ النّاس يزداد إدراكهم لقضاياهم ويتعمّق وعيهم لها حين يرونها مرئيّة أو مسموعة أمامهم شريطة أن يصوغها الكاتب المسرحيّ بقالب فنيّ عميق وممتع بعيداً عن الواقع الآني المباشر، أو النفق السّياسيّ الضّيّق. النّمطيّة سجنٌ.. الأيديولوجيا سجنٌ.. أمّا الإنسانيّة بتنوّعها واختلافها وصبوتها إلى الانعتاق عليها أن تبقى هاجس صانعي المسرح والمهتمين به.

طلعنا عالحريّة